وتداعت الجدران

آتيش ركس غوش يحاور مؤرخ الصندوق **جيمس باوتون**

يقول الفيلسوف الإسباني الأمريكي جورج سانتايانا إن "من لا يتذكرون الماضي مقيّض لهم تكراره." وقد سعى جيمس باوتون، بوصفه المؤرخ الرسمي للصندوق، إلى تجنيب المؤسسة تكرار أخطاء الماضي وإلقاء نظرة متعمقة ومتفردة من خلف الكواليس على أعمال منظمة لطالما تعرضت للانتقاد بسبب السرية التي تحيط بعملها وافتقارها إلى الشفافية.

وقد نشر الصندوق منذ فترة وجيزة كتابا لباوتون عن التاريخ الرسمي للمؤسسة في تسعينات القرن الماضي، وهو كتابه الثاني عن تاريخ الصندوق. ويغطي كتاب "هدم الجدران: صندوق النقد الدولي، ١٩٩٠–١٩٩٩" فترة مضطربة ليست في حياة الصندوق وحسب بل بالنسبة للعالم أيضا. فقد شهدت نهاية العقد السابق سقوط جدار برلين، وسرعان ما أعقبه انهيار الاتحاد السوفيتي وتحوُّل الكثير من بلدان الكتلة الشرقية السابقة إلى نظام اقتصاد السوق. وفي الوقت الذي بدأ فيه الصندوق يتصدى للتحولات السياسية في الجمهوريات الخلف للاتحاد السوفيتي، واجه سلسلة من الاضطرابات التي أحدثتها أزمات مالية متعاقبة. وفي نفس الوقت، بدأ الصندوق في تنفيذ إصلاحات داخلية تاريخية في مقاره في واشنطن العاصمة.

وتزامنا مع نشر هذا الكتاب الأخير عن تاريخ الصندوق، تحدث آتيش ركس غوش، الذي يعمل في إدارة البحوث في الصندوق، مع باوتون عن الفترة المضطربة التي تناولها في كتابه وعن سنوات عمله مؤرخا رسميا للصندوق.

التمويل والتنمية: عنوان كتابك القادم هو "هدم الجدران: صندوق النقد الدولي ١٩٩٠–١٩٩٩". فما السبب في اختيار هذا العنوان؟

باوتون: قصدت بهذا العنوان أن استحضر الكثير من الأحداث التي وقعت في تسعينات القرن العشرين. فكان أول الأحداث الكبرى انهيار الاتحاد السوفيتي في نهاية ١٩٩١. حيث نشأ على إثره ١٥ بلدا جديدا. ولم يكن لدى أي من هذه البلدان خبرة تذكر أو لم يكن لديها خبرة على الإطلاق باقتصادات السوق، وطُلب من الصندوق مساعدة هذه البلدان في عملية التحول الاقتصادي. وكان ذلك تحديا جسيما.

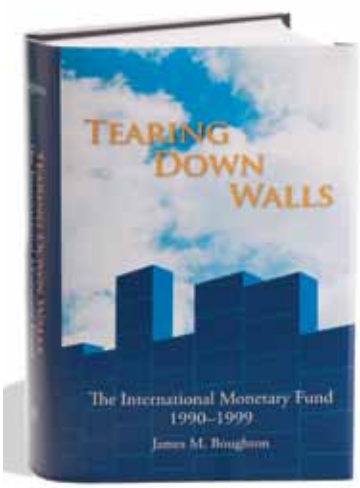

وتمثّل الحدث الآخر في سلسلة الأزمات المالية المدمّرة التي بدأت بأزمة البيزو في المكسيك في ديسمبر ١٩٩٤، ثم سرت إلى شرق آسيا فعصفت بتايلند وإندونيسيا وكوريا، وانتقلت إلى روسيا في ١٩٩٨، حتى أثرت بالفعل تأثيرا حادا على كل اقتصادات العالم. وبالتالي، أنشأت هذه السلسلة من الأزمات المالية قدرا هائلا من العمل أثقل به كاهل الصندوق، مما فرض تحديات جديدة على خبرائه وإدارته.

وكان هذا العقد بمثابة عقدٍ للعولمة. فأخذت الجدران القائمة بين البلدان، والجدران التي قيدت التجارة بين البلدان، والجدران التي أعاقت التدفقات المالية بين البلدان – جميعها في التداعي. وقد حاولت أن أصوغ هذا الكتاب بأسلوب ينقل هذه الإثارة الدرامية.

التمويل والتنمية: في هذه الفترة أيضا بدأ يزداد دور "الرقابة" على النحو الذي نفهمه – أي مراقبة أداء البلدان ومتابعة أسعار الصرف فيها للتأكد من أن الاقتصاد العالمي يعمل بكفاءة. فهل يمكنك أن تخبرنا قليلا عما حدث هناك؟

باوتون: عندما وقعت الأزمة المكسيكية في نهاية ١٩٩٤، كان من الواضح أن الصندوق لم يكن لديه معلومات آنية كافية لفهم ما كان يجري في المكسيك، وأسفر ذلك عن الكثير من البحث في أعماق الذات داخل أروقة الصندوق.

فكان علينا أن نعمل على توثيق وتكثيف التعاون مع البلدان المعنية لفهم ما كان يحدث في اقتصاداتها. لذا، فقد أضحت فكرة تعزيز شفافية الصندوق في حد ذاته وتشجيع الصندوق للبلدان على تعزيز شفافيتها سواء في تعاملاتها معه أو مع البلدان الأخرى، شغلا شاغلا للصندوق خلال النصف الثاني من ذلك العقد. وقد كان ذلك بمثابة تغيّر ثقافي هائل بالفعل.

التمويل والتنمية: في رأيك، أي نوع من الرسائل خرجنا به من تاريخ هذه الفترة؟

باوتون: الرسالة الإيجابية هي أنه في الملمات الجسام يتوجه زعماء العالم إلى الصندوق. وأعتقد أنه من العدل أن نقول إن الصندوق استطاع أن يكون على قدر هذا التحدي. وجزء من الدليل على ذلك هو أنه عندما عصفت الأزمة الاقتصادية الحالية بالعالم في ٢٠٠٨، توجهت البلدان مرة أخرى إلى الصندوق أكثر من أي مؤسسة أخرى التماسا للمساعدة.

بيد أنه وراء كل ذلك، أعتقد أن ثمة رسالة أكثر قتامة وهي أن هذه الأزمات ستظل تحدث. فقد علم الناس أن هذه مشكلة لن تغادرنا تماما، وأعتقد أن المستقبل سيشهد لجوء البلدان إلى الصندوق مرارا وتكرارا.

لقد اختلفت هذه المؤسسة كثيرا عما كانت عليه وقتما انضممت إليها منذ ٣٠ عاما في ١٩٨١. ولعل التغيّر الأكبر يتمثل في التحول

الثقافي الذي شهدته المؤسسة من السرية إلى الانفتاح. فحينها، كان حجم المؤسسة أصغر بكثير. وكانت أشد انغلاقا بكثير.

التمويل والتنمية: كانت تسعينات القرن الماضي وقتا خلافيا بالنسبة الصندوق، ويرجع ذلك جزئيا إلى انخراطنا في الأزمات الآسيوية وفي أمريكا اللاتينية، حيث اتُهمنا بأننا ندفع باتجاه «توافق واشنطن». فكيف تقرأ هذه الانتقادات وما مدى صحتها؟

باوتون: أعتقد أن بعض هذه الانتقادات كانت صحيحة. فكان هناك الكثير من الأوقات خلال التسعينات التي تأخر فيها الصندوق عن الركب قليلا ولم يتمكن من التنبؤ بما كان يحدث. وعادة ما كان يرجع ذلك إلى عدم توفر بيانات لدينا. ولعل أحد الأشياء التي وجدتها صادمة وقتما كنت أجري بحوثي لوضع هذا الكتاب عندما ذكر لي ستانلي فيشر – وهو أحد أبرز وأنجح خبراء الاقتصاد الكلي في العالم وكان يشغل منصب النائب الأول للمدير العام للصندوق آنذاك – عن صدمته عندما انضم للصندوق فاكتشف أن الخبراء لم يكن في متناولهم أي مصدر للحصول على معلومات كافية بشأن ما يحدث، على خلاف ما كان يتوقع. فكان يعتقد أننا نعرف كل شئ، وأن هناك أشخاصا بالخارج لا يعرفون أي شئ. غير أنه اتضح أن ما من أحد يعرف ما يكفي.

وكان أشد انتقاد وُجِّه للصندوق على الإطلاق بسبب الأزمة الآسيوية. فقد شاهدنا بعض المشكلات تحدث هناك، لا سيما في تايلند، ولكن التنبؤ بتوقيت حدوث الأزمات أمر جد صعب.

وحدث أنني كنت في مؤتمر في جامعة كامبريدج في إنجلترا في يوليو ١٩٩٧ عندما علمنا جميعا أن تايلند بدأت في خفض قيمة عملتها. فأجبر البلد على الدخول في وضع أزمة وبدأ في مخاطبة الصندوق التماسا للمشورة. وكان ستان فيشر حاضرا في هذا المؤتمر أيضا. فعرف على الفور، حيث كان قد مضى على بداية عمله مع الصندوق ثلاث سنوات تقريبا حتى تلك اللحظة، أن هذه ليست مجرد مشكلة صغيرة منعزلة في تايلند.

التمويل والتنمية: يحتوي كتابك على الكثير من التفاصيل المذهلة، وبعض النوادر، والكثير من البحث الجاد في الأرشيف والحقائق التاريخية. فهلا أعطيتنا صورة سريعة عن طبيعة عمل مؤرخ الصندوق؟

باوتون: دائما ما يسألني الناس هذا السؤال، «لماذا يكون لدى الصندوق مؤرخ من الأساس؟» السبب في ذلك يرجع إلى أن إدارة الصندوق أدركت أن ما من أحد خارج جدران مبنى الصندوق يعرف ما يحدث فيه، أو أي نوع من العمل نقوم به بالفعل.

شاهد على التاريخ

يقول جيمس باوتون واصفا عمله مؤرخا رسميا للصندوق "أشعر دائما بأنني أقف على أكتاف من سبقوني. وأراني أواصل حمل تراث مهم".

ويعد باوتون — الذي يتصادف تاريخ مولده في نفس العام الذي أسس فيه الصندوق — ثالث شخص يشغل منصب مؤرخ الصندوق. وقد حصل على تدريب في الاقتصاد وأجرى بحوثا في المجال وألف كتابين في سلسلة المجلدات التي تحوي التاريخ الرسمي للصندوق حتى يومنا هذا.

وكان أول من شغل هذا المنصب هو كيث هورسفيلد الذي بدأ السلسلة بكتابه "صندوق النقد الدولي ١٩٤٥–١٩٦٥"، الذي غطى فيه تأسيس الصندوق وسنواته العشرين الأولى.

ويتذكر بولتون قائلا "عندما حصلت على الوظيفة في البداية، كان كيث هورسفيلد لا يزال على قيد الحياة، وقد شجعني على قبول هذا العمل". لم يلتق الرجلان قط، ولكن باوتون داوم على مراسلة هورسفيلد، الذي كان قد تقاعد في جزيرة وايت.

وجاءت مارغاريت غارتسين دي فريس لتشغل المنصب خلفا لهورسفيلد، التي ألفت مطبوعتين بعنوان ""النظام تحت الضغوط" *(The System Under Stress)* و"تجريب التعاون" *(Cooperation on Trial)* غطت فيهما أعمال الصندوق من الستينات إلى أواخر السبعينات. وتعمل المطبوعتان على تتبع المفاوضات التي أفضت إلى إنشاء "حقوق السحب الخاصة" — وهي الأصل الاحتياطي الدولي الفريد الذي استحدثه الصندوق؛ والأزمات المتكررة التي انتهت بانهيار نظام بريتون وودز؛ وتحرُّك الصندوق لمواجهة التحولات الجذرية في النظام النقدي والمالي العالمي.

وبدأ باوتون مساهمته في هذه السلسلة بمطبوعة "الثورة الصامتة: صندوق النقد الدولي ١٩٧٩–١٩٨٩"، التي ركزت إلى حد بعيد على الأزمات المالية في أمريكا اللاتينية إبان هذه الفترة. ولم يكن المقصود على الإطلاق أن تقع هذه الكتب ضمن مجموعة منمقة من السرديات العقدية، ولكن تصادف أن يبدو كل مجلد وكأنه "يشكل عقدا طبيعيا من تاريخ الصندوق"، كما يقول باوتون.

ويرجّح باوتون أنه بعد نشر مطبوعة "هدم الجدران" سيركز المجلد التالي على الأزمة العالمية الحالية: "كيف شُطب الصندوق كمؤسسة عالمية قبل أن يُستدعى للتعامل مع الأزمة"، على حد قوله.

ويستعد باوتون للتقاعد الآن، غير أنه من المرجح أن يظل منصب المؤرخ الرسمي للصندوق شاغرا لفترة قبل تسمية من سيخلفه. فدائما ما يترك الصندوق فجوة زمنية قبل تعيين مؤرخ جديد، حيث إن التاريخ يحدث قبل أن يُكتب على الورق، بما في ذلك الأزمة الراهنة. ويشير باوتون إلى أنه ربما قد حان الوقت لجعل هذا المنصب دائما ومستمرا.

وأتلقى أيضا الكثير من الأسئلة من خبراء الصندوق. فعند كتابة أي تقرير عن السياسات، يحتاج الناس إلى معرفة ما تمت تجربته من قبل، ويمكنني أن أشرح لماذا جُربت أشياء في الماضي ولم تُقبل على الرغم من أنها قد تبدو ناجحة ظاهريا.

إن أكثر ما استمتع به هو محاورة كبار المسؤولين في جميع المجالات؛ فألتقي بأشخاص رائعين واستمع لقصص رائعة. ولعل ما تعلمته على مدار عشرين عاما في هذا العمل هو أن تلخيص الأحداث أمر صعب، غير أن محاولة صوغه في كلمات يمثل متعة فريدة وتحديا رائعا. ■

يشغل آتيش ركس غوش منصب مدير مساعد في إدارة البحوث في الصندوق وهو مؤلف مطبوعة Nineteenth Street, NW.